ANCORA IMPARO

المصور

ابريل ١٩٢٩ اعرف نفسك بنفسك : فيثاغورس العدد ٣٠

علاقة الموضوعى بالذاتى

— ٢ —

تكلمنا فى هذا الموضوع فى العدد الماضى ووقفنا عند تحديد هذين المعقولين الفلسفيين ، وعرفنا أن النظام الكونى عالم الموضوع . فلنمض من ثم فى هذا البحث لا لنخرج منه بشىء جديد ، ولا لأن نضع فيه فكرة جديدة ، بل لنقربه من الأذهان بقدر المستطاع . وقد أصبح مدارا لكثير من الابحاث الفلسفية والاجتماعية والنفسية فى العصر الحديث :

التفكر عالم الذات

فصلنا فى مقالنا الأول اصطلاح التفكر على اصطلاح النفس لاسباب أبديناها . وأشرنا إلى أن الباحثين طالما خلطوا بين مايقصد فى الفلسفة ومباحث الاجتماع من اصطلاح ذاتى Subjective واصطلاح أنانية Egoism على أن الفرق ظاهر بين

الاصطلاحين. فالذاتى هو كل ما تعلق بالذات من الأشياء ولو لم يكن فيه أية فكرة تحمل الذات على تسويد مصالحها الدنيوية على مصالح غيرها من الذوات ، أو اختصاصها بشيء تعاول الاستئثار به دون غيرها . أما الأنانى أو الأنانية فالنزعة التى تغرى الذات على أن تفضل مصالحها على مصالح غيرها من الذوات . ولم نقصد إلى أنها تنزع إلى شيء لا تجيزه شرائع الآداب الاجتماعية . والفرق جلى ظاهر بين الحالتين .

ومثال الحالة الأولى الفكرة الدينية التى تسلك من زمام كل فرد بقدر ما فيها من مؤثرات لتؤثر فى ذهنه ونفسه تأثيراً ما . ولسنا نذكر مطلقاً أن فى الدنيا من صور الدين بقدر ما فيها من رؤوس ، وفيها من مختلف الفكرة الآلهية بقدر ما فيها من أذهان . فإن الناس إن اتفقوا اصطلاحاً على تحديد كل دين تحديداً يكاد يكون مثاراً للجدل وموضعاً للجدال فى كل حين ، وإن اتخذوا من النصوص الدينية فكرة بدائية عن الله أو خالق الكون أو مدبر الطبيعة أو الذات الكاملة المختفية وراء عالم الظواهر ، فانهم لدى الحقيقة انما ينظرون فى تلك النصوص والتحديدات نظرات مبهمة غامضة ، اذ انهم لا يدركون من الدين ولا من الألوهية الا بقدر ما تؤهل اليهم به نزعاتهم وكفاياتهم التى لا يمكن أن تأتلف فى فردين من أبناء آدم . بله بمجموع بنيهم ، وهذا مثال يمكاد يكون كاملا عما يعنى بالذاتية فى مباحث الفلسفة . يمكن اتخاذه لحالات أخرى قياساً وقاعدة يجرى عليها المفكرون

أما الحالة الثانية فليس لدينا مثالا عليها أظهر من مثال الفنيين Unitarians أصحاب المذهب النفى ، الذين ظهروا فى انجلترا . فان هذا المذهب هو خليط من جملة مذاهب ظهرت فى العصر القديم وفى العصر المدرسى ، قد حاول أصحابه أن يقاوموا به نزعة الفرد مجتمعا إلى انكار أنانيته وجحد ذاتيته فى سبيل الخير العام أو التضحية من أجل الأجيال المستقبلة ، أو غير ذلك من النزعات التى لا يراعى فيها الفرد أنانيته أولا . وهؤلاء ان كانوا فى الواقع أكثر تقديسا للفرد واعترافا بما للفرد من الآثار فى اسعاد الجماعات ، فان محاولتهم هذه لم تكن بأكثر من محاولة قصد بها الاستيلاء على نزعة فطرية بمبدإ فلسفى ، وهى فضلا عن ذلك مثال لما نعنى من الأنانية تعريفا نحدد معه

ما يتابع ذلك من المخترعات والمدركات تحديداً يمكننا من المضي في درس الفكرة ونحن على مأمن من أن نقع في خلط أو بغشاوة تغطي على التفكير

ولنرجع الى شرح الفكرة الأصلية . فانا عند ما نقول « ان الفكر عالم الذات » فانا لا نقصد بذلك أن للفكر عالماً مادياً تحيز فيه الماديات ، ويتحدد فيه المكان والزمان كما هو شأن العالم الموضوعي ، عالم النظام الكوني . بل نقصد بذلك أن الذاتيات لن تكون الا في « الفكر » او في « النفس » وكلا الاصطلاحين صحيح عندي ، وأنه لا يمكن أن تخرج الذاتيات عن منطقة محدودة في الخيلة ، بحيث لا تتناول شيئا من عالم الظواهر بأثر مادي أو غير مادي . فانك إذا فكرت في دينك أو في حياتك باعتبارها ملكاً لك وحدك ، فانك انما تفكر في اشياء ذاتية لا علاقة لها بغير فكرك أو نفسك . ولكنك إذا فكرت في فلسفة ارسطو الطبيعية او مبادىء سقراط الأدبية ، فانك انما تفكر في اشياء موضوعية صرفة للناس أن تفكر فيها مثل تفكيرك وان تتناول منها نواح من البحث ليست وقفاعليك وحدك . ولا هي متعلقة بذاتك دون بقية الذوات

وهنا يجب أن نتنبه الى مسألة ذات بال . فانا اذا قلنا بان الفكر عالم الذات فليس من قصدنا أن نقصر الذات على الفكر أو الفكر على الذات ، وانما نقصد بذلك أن الذاتيات لا تخرج عن الفكر او النفس ، ذلك لان الفكر قد يتناول مسائل موضوعية صرفة يدركها ويعقلها ويعللها ويعود بها الى مناشئها الأولى ، من غير أن يكون لهذه الاشياء علاقة بذواتنا اكثر مما لها بذوات اشياء اخرى . وكذلك قد يتناول الفكر مسائل ذاتية من غير أن يكون لهذه المسائل علاقة بموضوع تفكيرنا اكثر مما لها بموضوعات أخرى لا يتناولها تفكيرنا وقتاً ما .

هل في الحيوان شعور بالذاتية ؟

يدرك الحيوان الموضوعات ولا شبهة ادراك حسي — Sense—perception — ولكنه لا يدرك إدراك فكر تقوم فيه المقارنات وترتضار به الترجيحات والمرجحات كما تقوم في نفس الانسان . فالحيوان يدرك الجوامد أنها جوامد . والحيوان أنبا حيوان — من طريق الحس وحده ، قادرا كه موقوف على ماتنقل اليه الحواس من صور ، تثبت في عقله . على قدر ما . بالتكرار من طريق الكسب . وبالغريزة من

طريق الوراثة . على أنى أشك فيما اذا كانت الابحاث العلمية الصرفة تجدى لنا أن نجعل ما يدرك الحيوان من طريق الوراثة داخلا فى دائرة التجاريب التى تنقل اليه من طريق الحواس . غير أن الابحاث النفسية الحديثة وعلى الاخص تلك الابحاث التى قامت على نظرية العلامة دلت على أن الوراثة لاتجعل الفارق بين الغريزة والعادة ، وهى لدى الواقع « تجاريب » تصبح مع التكرار اثبت من غيرها فى سلوك الكائن الحي كبيراً . بل هى ترمى الى القول بان الغريزة فى اصلها عادة تنقلت بالوراثة واصبح لها فى تكوين اجرائيم التناسلية اصولا تنقلها من الاسلاف الى الاخلاف . وعلى هذا يصح لنا أن نجعل الغريزة والكسب من اصل واحد وان اختلفا فى المظهر الخارجى والآثار العامة

وبعد هذا نتساءل : هل يمكن أن يكون للحيوان من مجموع التجاريب التى يكتسبها بالمران والغريزة التى تنتقل اليه عن اسلافه شيء ندعوه « شعور بالذات » على الصورة التى حددناها فيما كتبنا ؟ لاجرم أن ذلك يتوقف على أن فى الحيوان عقلا يناظر فى الانسان جماع مايقوم فى حياته من شعور وتصور وحكم على الاشياء . ولكن ماهو العقل أولا ؟ ذلك سؤال يتحتم علينا أن نجيب عليه قبل ان نستطرد فى بحثنا هذا

لاجرم أننا نضرب بأقوال القدماء مثلا لما كانوا يدركون من العقل . فقد ذهبوا مذهباً واحداً أجمعوا عليه الا قليلا . وهو أن العقل عبارة عن خاصية فى مبدإ مفارق للبدن — الروح — ينتقل مع هذا المبدإ فى اللحظة التى يفترق فيها عن البدن . اذن فالعقل صفة فى الكائن العاقل يحملها مبدأ يفارق الكائن لدى الموت . وما دام العقل صفة من صفات الحياة اذن فذلك المبدأ المفارق هو الحياة ، واذن فهو المحل الذى يحل فيه العقل استتباعاً .

على أن المحدثين لم يستطيعوا أن يثبتوا للعقل وجوداً مادياً يمكن قياسه أو لمسه أو الوصول اليه بطريق من طرق الحس . فالعقل عندهم أحد مظاهر الحياة . والحياة عندهم ضرب راق من ضروب النشاط والحركة . عندهم أن العقل هو الحياة الداخلية . وعندهم أن الحياة الداخلية عبارة عن الناحية الذاتية للسلوك الموضوعى . وهم فوق ذلك مفتنون بأن العقل على قدر اتصاله بالحاجات والحالات العالمية التى ندركها ونحس بها ، لايمكن فصله بأى وجه عن صور النشاط التى ترى فى الجسم على وجه عام ، وفى

تلك مسألة فرغ من اثباتها الطبيعيون، ونحن هنا نجاريهم فيما قرعليه رأيهم إزاء هذه المسألة الخطيرة . ولكن هل تتساوى كل مراتب الحيوان فى العقل، لتكون استتباعا متساوية فى القدرة على الشعور بالذاتية ؟ كلا . فان نشوء العقل فى الحيوان درجات تدرجية نشوئية تتبعها العلامة طومسون فى كتابه من أدنى اللافقاريات إلى أرقى ذوات الثدى . ولا جرم أن أول درجات النشوء العقلى فى الحيوان لا يصحبها شعور بالذاتيه جدير بأن يقال فيه إنه شعور صحيح بوجود الذات . ولكن ظاهرة العقل مادامت موجودة فى الحيوان فلا شك فى أن وجودها لابد من أن يصحبه شعور بالذاتية، وان عجزنا عن أن ندركه قياسا بالمشابهة . غير أننا فى أرقى ذوات الفقار وفى القديات يمكننا ادراكه واثبات وجوده على صورة تابعة بالضرورة للقدرة العقلية التى تكون للحيوان الذى نكشف على دراسته. على أننا لانغفل هنا عن أن ننبه على أن ادراك الحيوان بالذاتية لايتعدى قدر ته على ادراك الحس . إذن فادراك الحس صفة يشارك فيها الانسان الحيوانات. ومما دام إدراك الحس دليل قاطع على الشعور بالذاتية - إذن يكون الشعور بالذاتية فى الانسان له بداياته و صور الحيوانات من أدناها إلى أرقاها، وأن هذا الشعور مازال يتدرج فى صور من النشوء متعاقبة، حتى تميز فى الانسان على الصورة الفلسفية الأخيرة التى أوجزنا شرحها فى الصفحات السالفة

اسماعيل مظهر

أطلب من دار العصور للطبع والنشر

ومن جميع المكاتب المعروفة

العقاد